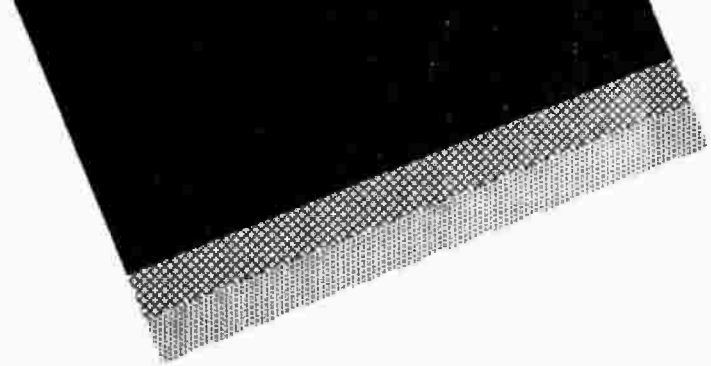

القسم الأول

1 ـ كيف استلهم شعراء النيل ثورة الأوراس؟

دراسة بقلم الشاعر: د. حسن فتح الباب

2 ـ من وحي الكفاح المسلح.

3 ـ من وحي جميلة بوحريد.

4 ـ من وحي النصر والاستقلال.

1 كيف استلهم شعراء النيل ثورة الأوراس

دراسة بقلم الشاعر

د. حسن فتح الباب

تضرب العلاقات المصرية الجزائرية بجذورها في أعماق التاريخ؛ إذ ترجع إلى حقبة ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام، فالتواصل كان قائمًا بين الفراعنة في مصر وبين النوميديين في الجزائر، وتعاقبت القرون وعانى الشعبان اللذان ينتميان إلى قارة واحدة قهر الإمبراطورية الرومانية، ثم أشرقت شمس الإسلام؛ فانجابت غياهب الوثنية والطغيان بدخول المصريين في دين التوحيد، ومن أرض الكنانة زحفت كتائب الجيش الإسلامي إلى الشمال الإفريقي مكتسحة جحافل الروم بدءًا من تونس حتى الجزائر ثم المغرب.

وتوطدت دعائم العلاقات بين مصر والجزائر حينما قامت ثورة يوليو سنة 1952 بقيادة الزعيم "جمال عبد الناصر"، وذلك أنه انطلاقًا من إيمانه بالقومية العربية ووحدة التاريخ والمصير بين الشعوب العربية مد يد العون إلى ثورة التحرير الجزائرية التي اندلعت شرارتها في أول نوفمبر 1954 بقيادة جبهة التحرير. وكان في طليعة المناصرين لهذه الثورة الكبرى في جميع الميادين.

ومن ثم، كان لمصر العربية دور كبير في إمداد ثوار الجزائر بالسلاح والعتاد عن طريق تونس وعبر البحر الأبيض، فضلاً عن دعمها السياسي لهم في المحافل الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة، لإقناع الرأي العام العالمي والمنظمات الدولية والإقليمية بعدالة القضية الجزائرية ودحض مقولة المستعمر: "إن الجزائر جزء من فرنسا". ويرجع الفضل فيما صدر من قرارات وتوصيات من الأمم المتحدة في صالح الجزائر إلى الجهود التي بذلتها مصر ومعها دول أخرى في سبيل الدفاع عن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم بأنفسهم.

أما على المستوى الداخلي، فقد أرادت مصر أن تكون امتدادًا لجبهة التحرير

الجزائرية، إذ خصصت مساحة كبيرة في وسائل الإعلام: المقروءة والمسموعة لقضية الشعب الجزائري، وفي مقدمة هذه الوسائل إذاعة صوت العرب التي كانت توالى بث أنباء الكفاح المسلح الذي يخوضه أبناء الوطن الشقيق لتحرير بلادهم، وتمجد شهداءهم وتشيد بالأبطال، لشد أزرهم، وتوعية الرأي العام العربي والإفريقي والآسيوي والرأي العام في أوروبا والأمريكتين بالدوافع الوطنية النبيلة التي فجرت ثورة الفاتح من نوفمبر كي تتضامن معها الدول والشعوب.

وكان الثوار يستمعون إلى هذه الإذاعة في معاقلهم على جبال الأوراس من خلال الأجهزة الصغيرة التي استطاعوا تصنيعها أو التي أمدتهم بها بعض البلاد العربية وفي مقدمتها مصر، أو التي غنموها في معاركهم، وكان الفدائي يحمل بندقيته بيد و"الراديو" الذي يذيع الأنباء من "صوت العرب" باليد الأخرى[1]. وقد وفدت إلى الجزائر بعثات صحفية مصرية لرؤية الواقع رأي العين ونقل أخبار المعارك إلى العالم، لدحض المفتريات والشائعات الكاذبة التي كانت تذيعها وتنشرها السلطة الاستعمارية ومن لف لفها: ومنها إطلاق اسم "الفلاجة" أي قاطعي الرؤوس على المجاهدين، ولفضح الجرائم البشعة التي كان يرتكبها جيش الاحتلال ضد المدنيين بالمخالفة لأحكام المعاهدات والاتفاقات الدولية التي وقعت عليها الدول الأوروبية ومنها فرنسا. كما أرسلت مصر إلى المناضلين الجزائريين بعثات طبية لعلاج الجرحى[2].

واستقبلت مصر من أوفدتهم إليها جبهة التحرير الجزائرية من الشباب المنخرطين بها لتدريبهم على فنون القتال المشروع، وسيرت إلى الجزائر سفنا مشحونة بالأسلحة[3]، كما استقبلت مصر الشباب الجزائريين طلاب العلم

---

(1) بلغ من تقدير المجاهدين لهذه الإذاعة أن أطلق على أحدهم اسم صوت العرب مثلما سمى كثير من الجزائريين أبناءهم باسم "جمال" عرفانا بجميل عبد الناصر، وإن كانت مصر تعد مناصرة الشعوب العربية المكافحة ضد الاستعمار واجبًا بل فريضة مستحقة.

(2) كان الأديب الدكتور يوسف إدريس أحد الأطباء الذين قاموا بواجبهم القومي والإنساني، وقد التقى ببعض الثوار في مواقعهم..

(3) منها سفينة كان يستقلها المناضل هواري بو مدين وكان يدرس بالأزهر، وأصبح بعد الاستقلال رئيسًا للجمهورية الجزائرية بعد بن بيللا.

فانتظموا في جامعة الأزهر وفى دار العلوم، وفيما بعد الاستقلال بعثت مصر مئات المعلمين إلى الجزائر مساهمة منها في حركة التعريب الذي جعلته الدولة الجزائرية من المهام الأساسية التي اضطلعت بها لاسترداد لغتها وثقافتها القومية، بعد أن تعرضت خلال الحقبة الاستعمارية لمحاولات الطمس والتشويه وإحلال الفرنسية الدخيلة محل لغة الضاد، وذلك تحقيقًا للشعار الذي رفعه رائد الإصلاح: عبد الحميد بن باديس:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ومن الحقائق التاريخية الساطعة: أن تضامن مصر مع الجزائر في مختلف الميادين قد بلغ الذروة منذ السنوات الأولى لثورة 23 يوليو، مما أوغر صدر فرنسا، فقامت بالاشتراك مع بريطانيا وصنيعتها إسرائيل بالعدوان الثلاثي الغادر على مصر سنة 1956، للانتقام منها بعد أن أصدر جمال عبد الناصر قراره التاريخي بتأميم قناة السويس. وكان من بواعث هذا العدوان الغاشم مساندة الثورة المصرية للثورة الجزائرية. وقال الرئيس عبد الناصر في خطاب وجهه إلى الجماهير في أعقاب الغزو: "سنترك للثوار الجزائريين مهمة تأديب موليه"[1].

ويقول الدكتور محيي الدين عميمور الوزير الجزائري الأسبق للثقافة والإعلام عن العلاقات الجزائرية المصرية: "إن قيمة التحرر الوطني التي قدمتها كل من الجزائر ومصر هي أهم عناصر هذه العلاقات التي كانت اختيارًا استراتيجيًا". وإن ثمة معالم بالجزائر تجسد التعاون المصري الجزائري تجسيدًا دائمًا لهذه الحقيقة[2]. كما أشار الدكتور عميمور إلى أن التاريخ سجل تضحيات مشتركة من بينها تضامن الأسطولين: الجزائري والمصري في معركة "نوارين" في عام 1827 في عهد محمد علي

---

(1) موليه: رئيس الوزارة الفرنسية وقتئذ.

(2) من مقال بصحيفة الأهرام المصرية في 12 يوليه 2004، وقد جاء فيه أن فندق الأوراس رمز من رموز التعاون المصري الجزائري يذكرنا بالمهندس المصري الراحل مصطفى موسى الذي أشرف على إقامة هذا الفندق الذي يعد أهم فنادق الجزائر، وعلى إقامة "قصر المؤتمرات" بمنطقة نادي الصنوبر.

باشا والي مصر، وهي المعركة التي تحطم فيها الأسطولان مما سهل الاحتلال الفرنسي للجزائر في سنة 1830.

وهكذا، ألفت بين قلوب أبناء الشعبين الانتصارات والانكسارات، التاريخ المشترك والكفاح الوطني ضد الأعداء، والحاضر الذي ترفرف عليه رايات الحرية والإخاء، والمستقبل المنشود على قواعد راسخة من العمل المثمر والجهد البناء في سبيل التنمية والرخاء.

ملحمة الجزائر في قيثارة الشعراء(*):

شعر المقاومة:

لكل ثورة أو حركة تحرير شعراؤها الذين ينتمون إلى شعبها أو إلى الشعوب الأخرى، والفريقان يناصران في قصائدهم وأناشيدهم للثورة، ويحضان أبناءها وسائر أبناء أمتهم على الانضمام إلى ركب النضال، ويحثان من تقصر طاقته عن القتال على بذل المال، أو تقديم ما يستطيع من وسائل العون إلى المحاربين أو إلى أهليهم من أطفال ونساء وشيوخ يضطهدهم العدو المحتل ويشردهم، أو إلى الأيتام الذين فقدوا آباءهم، والأرامل اللاتي فقدن أزواجهن. كما يدعوان هؤلاء الشعراء أحرار العالم والمنظمات الدولية وروابط حقوق الإنسان إلى مؤازرة حركات التحرير بمختلف الوسائل حتى تحقق هدفها الأسمى.

هكذا، يقف أولئك المبدعون في صفوف المناضلين، ويدافعون عنهم بألسنتهم وأقلامهم، وهم يسمون: شعراء المقاومة؛ لأن الدور الذي يقومون به لا يقل أهمية ولا تأثيرا عن دور المقاومين بالسلاح، فالكلمة الصادقة البليغة تنفذ إلى أعماق النفس فتهز الوجدان، وتسهم في تعبئة القوى على درب الحرية والتحريض على الكفاح، ولا يؤثر الشاعر الوطني أو الإنساني في أبناء الشعب الذي تقوم طليعته بالثورة وحدهم، بل كثيرًا ما يصل صوته عبر وسائل الإعلام إلى كثير من البلدان الأخرى، وقد يكون من بينها بلد العدو نفسه إذا ترجمت قصائد هذا الشاعر إلى لغته، مما قد يؤدي إلى كسب مزيد من أنصار الثورة أو المتعاطفين مع شعبها، وقد تتسع دوائر هذا التأثير حتى تشمل العالم بأسره على اختلاف المواقع الجغرافية

(*) اقتصرت الدراسة على الإبداع الشعري الذي رافق ثورة الجزائر، منذ اندلاعها في عام 1954 حتى عام 1962م.

وتباين الأنظمة السياسية. ويقف شعراء المقاومة في مقدمة المثقفين والمبدعين؛ لأنهم يمثلون منذ فجر التاريخ ضمير البشرية، وقدرة الشعوب على الاستمساك بحبل الحق مهما استبد الطغيان واشتد العدوان، ولأنهم يملكون سلاح الكلمة والفكر الذي يستطيع التغلب على الأسلحة المادية، وبهذا السلاح المعنوي يدافعون عن أقدس قضية وهي: الحرية والعدل، فيستيقظ النائم من غفلته وتتآلف القلوب إذ يجتمع فيها الصدق والحرارة[1].

شعراء المقاومة في الجزائر:

لذلك، كان من الطبيعي أن تنجب ثورة الفاتح من نوفمبر شعراء مقاومة اعتنقوا مبادئها وانضموا إلى صفوفها وناصروها بقصائدهم متحدين المستعمر مضحين بأمنهم وحريتهم، ومنهم من ضحى بحياته مستشهدا، وبعضهم ما زال على قيد الحياة. ومن الأولين: محمد السعيد الزاهري وزهير الزاهري وأبو اليقظان بن الحاج عيسى وأبو بكر مصطفى بن رحمون والهادي السنوسي وأحمد سحنون وعبد الكريم بن العقون وعمر بن قدور والربيع بو شامة والأخضر السائحي. ومن الشعراء المعاصرين الدكتور أبو القاسم سعد الله مبدع ديوان (النصر للجزائر) وصالح غباشة وعبد القادر السائحي[2].

ويقع في الصدارة من هؤلاء جميعا: مفدي زكرياء الملقب بشاعر الثورة الجزائرية ومؤلف كلمات النشيد الوطني الجزائري (قسمًا بالنازلات)[3]، والشاعر الشيخ محمد العيد آل خليفة شاعر جمعية العلماء الجزائريين المسلمين، فقد واكب هذان الشاعران الكبيران ثورة التحرير في جميع مراحلها، وربطا مصيرهما بها وضحّيا في سبيلها، فقضى مفدي سنوات من شبابه وكهولته في عالم السدود والقيود، وفرضت السلطة الاستعمارية الإقامة الجبرية على محمد العيد في بلدته "بسكرة". وكان مفدي والعيد فرسي رهان في حلبة مناصرة حركة التحرير، ومثلهما في اقتران

---

(1) أشهر شعراء المقاومة في العالم: الشاعران الفرنسيان بول إيلوار، وأراجون، والشاعر التركي ناظم حكمت، وشاعر شيلي بابلو نيرودا.

(2) من شعراء المقاومة في الجزائر: الشاعر الطيب محمد باويه الذي رحل عن دنيانا أخيرًا.

(3) لحن هذا النشيد الموسيقار المصري محمد فوزي.

اسم كل منهما بالآخر كمثل أحمد شوقي أمير الشعراء وحافظ إبراهيم شاعر النيل. وإذا كان محمود سامي البارودي قرينًا للأمير الشاعر عبد القادر الجزائري، فكلاهما كان رب السيف والقلم، فإن مفدي زكرياء ومحمد العيد آل خليفة حفيدان للأمير عبد القادر في شعر المقاومة ورائدان من رواد الشعر الحديث، مثلما يعد شوقي وحافظ حفيدين للبارودي ورائدين بعده لمدرسة الإحياء الشعري[1].

استلهام شعراء مصر الثورة الجزائرية:

لا غرو أن يواكب الشعراء العرب عامة والمصريون خاصة ثورة التحرير الجزائرية منذ اندلاعها، بل إن الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل قد تغنى بانتفاضات المغرب العربي من الجزائر حتى مراكش قبل أول نوفمبر 1954 كما سنبين فيما بعد، ذلك أن حلقات المقاومة والكفاح ضد الاستعمار لم تنقطع حلقاتها منذ احتلت فرنسا أرض الجزائر في الخامس من يوليه 1930، فما إن تخمد السلطة الباغية جذوة النضال في منطقة حتى يعود رماد المقاومة إلى الاشتعال في منطقة أخرى، إلى أن هب الشعب الجزائري عن بكرة أبيه معلنًا ثورته الكبرى محطما قلاع الظلم والظلام.

حينئذ، أدركنا نحن شعراء مصر الذين عاصروا تلك الثورة، وكذلك شعراء الأقطار العربية الأخرى، أن شعب الأوراس سوف ينتزع من براثن الاستعمار العنصري الاستيطاني البغيض وطنًا عربيًّا عزيزًا قادرًا على أن يأخذ مكانه من الوطن العربي الكبير ومكانته في العالم، وأن ينهض بدوره في دعم الحضارة الإنسانية، ويسهم في ازدهار حركة الحرية والعدالة والتقدم التي يقودها المناضلون من أبناء الشعوب التي عانت طويلا من التخلف الذي فرضته عليها القوى الاستعمارية بعد أن حرمتها من أدنى حقوق الإنسان.

وتحقيقا لهذا الغرض، عقد اجتماع برئاسة السيد الأستاذ الدكتور سليمان الشيخ، رئيس مؤسسة مفدي زكرياء (وقت أن كان سفيرًا للجزائر في مصر،

---

(1) مما يجدر بالذكر أن مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية زار أرض الكنانة، ولقي من الحفاوة والتقدير والتبجيل ما هو جدير به، وقد أقيمت له أمسيات شعرية في المنتديات الثقافية، وتوطدت علاقته بأدباء مصر، وحين عاد إلى بلاده ظلت هذه العلاقة قائمة عبر الرسائل التي تبادلها مع الشاعر الكبير صالح جودت، وقد نشرت صحيفة الجمهورية بوهران بعد رحيله بعض هذه الرسائل، رحمه الله.

وعضوية الأستاذ فيصل بن مريم المستشار الثقافي للسفارة الجزائرية، والأستاذ محمد رشاد، وكاتب هذه الدراسة، وأسفر هذا الاجتماع عن وضع خطة عمل وبرنامج للتنفيذ. وقد وقع اختيارنا على الأديب الأستاذ أحمد حسين الطماوي لمعاونتنا في البحث والتنقيب، وتحديد مصادر البحث وتوثيقها، وكتابة نبذة عن كل شاعر نشرت له قصيدة أو أكثر من وحي ثورة التحرير الجزائرية. وقد اقتضى ذلك إجراء اتصالات كثيرة بالشعراء والأدباء الأحياء الذين واكبوا ثورتي يوليه ونوفمبر، لعل لديهم معلومات عن قصائد مجهولة لشعراء راحلين استوحوا ثورة الجزائر، وعن سيرهم الذاتية وإبداعهم.

وكانت محصلة البحث الدءوب نحو ثمانين قصيدة جيدة من الشعر الفصيح، وبعض قصائد من شعر العامية المصرية، بالإضافة إلى المسرحية الشعرية التي كتبها الشاعر الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي ومثلت على المسرح القومي بالقاهرة وعنوانها "مأساة جميلة"[1] و"أوبريت جميلة "للشاعر كامل الشناوي، وقصيدة طويلة أخرى في قالب قصصي للشاعر عبد الرحمن الخميسي، وقصيدة درامية للشاعر محمد الجيار. وليس من المستغرب أن تكون قصائد الشعراء المصريين في الثورة الجزائرية من الكثرة بحيث تكوّن ديوانًا كاملاً، فمصر هي منارة الشعر منذ عصر بنتاؤور الفرعوني: أقدم شاعر في التاريخ، وهي موطن البارودي وشوقي وحافظ وشعراء مدرستي: الديوان وأبوللو، وما زالت تلد الشاعر في أعقاب شاعر. وجزائر الثورة هي مصدر إلهام شعر المقاومة من عهد الأمير عبد القادر حتى الآن.

وترجع غزارة الشعر العربي المصري المستلهم من الثورة الجزائرية إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بهذه الثورة وبسطت عليها ظلالها، فأثرت فيها كما تأثرت بها. فقد اندلع لهيبها في أوائل العقد الأول من النصف الثاني للقرن العشرين، فعاصرت ثورة 23 يوليه التي احتضنت الانتفاضات والثورات العربية ضد الاستعمار

---

(1) زارت المجاهدة الجزائرية الفاهرة لمشاهدة المسرحية التي كانت تمثل على خشبة المسرح القومي، بيد أن أيام العرض كانت قد انقضت. وقد احتفت بجميلة الأوساط السياسية والأدبية والفنية احتفاء تاريخيًا مشهودًا.

القديم؛ فتآخت هذه الثورات، وتوثقت عرى هذا التآخي بعد العدوان الثلاثي على مصر كما سبق أن نوهنا، وازداد الترابط والتضامن والتعاون بعد استقلال الجزائر.

كما عاصرت الثورة الجزائرية ثورة تموز (يوليه) في العراق، وإعلان الوحدة بين مصر وسورية والانقلابات العسكرية التي أجهضت الوحدة، والأحداث السياسية في الأردن واليمن، وانعكس ذلك كله على قصائد الشعراء الذين استوحوا الثورة الجزائرية. كما عاصرت ثورة الجزائر أيضا سنوات النضال الذي قاده لومومبا في الكونغو ضد الاستعمار البلجيكي، وإيفاد مصر كتيبة عسكرية برئاسة العقيد سعد الشاذلي[1] لمساندة رئيس الكونغو الشرعي في معركته التي خسرها بعد التدخل العدواني السافر للقوى الاستعمارية، وتسليمها السلطة لأعداء الشعب، ومؤامرة اغتيال لومومبا.

أما على المستوى الوطني الشعبي بمصر فإن غزارة الأعمال الأدبية لشعراء النيل ترجع إلى الانفعال بأحداث ثورة الفاتح من نوفمبر وبطولة شعبها وفدائية مجاهديه؛ والاستجابة للمد القومي والعالمي المناصر للثورة والمنادي بمؤازرتها ماديًا ومعنويًا، فقد كان صدر كل عربي في مصر وسائر البلاد العربية يخفق باسم جزائر الثورة ويمجد شهداءها ويشجب أعداءها، بدءًا من المستعمر الفرنسي حتى دول حلف الأطلنطي التي تقف خلفه.

فلا غرو أن يتبارى الشعراء المصريون في التعبير عن مشاعرهم الفياضة، ويتسابقوا مثل سائر الشعراء العرب في إسماع صوتهم الحر لقومهم ولدول العالم وشعوبه كافة. فاستوحى فحول الشعراء ملحمة الجزائر فرائد من الإبداع الثوري الرصين، وفي طليعتهم: محمود حسن إسماعيل وصالح جودت وأحمد مخيمر ومحمود غنيم ومحمود الخفيف رحمهم الله، ومن الأعلام أيضا الشعراء: د. أحمد هيكل ومحمد التهامي وعبد المنعم عواد يوسف، ومن الشواعر: جليلة رضا.

---

(1) هو الفريق سعد الدين الشاذلي أحد رجال العسكرية المصرية المبرزين.

أولاً: التنوع إيقاعًا وشكلاً:

صاغ هؤلاء الشعراء ـ وإلى جانبهم آخرون من طبقة فنية أقل ـ قصائدهم في القالب العمودي، ونوّع بعضهم على هذا القالب. أما كبار الشعراء الذين اختاروا لإلهامهم قالب الشعر الحر (شعر التفعيلة) فهم: صلاح عبد الصبور وكمال نشأت وحسن فتح الباب وعبد القادر حميدة والشاعر الراحل محمد الجيار.

وتتفاوت القصائد من حيث أبياتها (في الشعر العمودي) أو سطورها (في الشعر الحر). فمنها الطويلة التي تستغرق عدة صفحات مثل قصيدة محمود الخفيف، ومنها القصيدة التي لا تتجاوزعدة أبيات، ومنها المتوسطة الطول وهي الأكثرية، ويضم ديوان الشعر العربي بمصر المستوحى من الملحمة الجزائرية إلى جانب القصائد المسرحية الشعرية التي انفرد بها عبد الرحمن الشرقاوي وهي (مأساة جميلة)، والأعمال الدرامية والملحمية الأخرى، كما يضم الديوان قصائد بالعامية المصرية نشرها شاعران كبيران هما: فؤاد حداد وصلاح جاهين وآخرون من المشهورين أو المغمورين.

وتندرج هذه الأعمال الشعرية جميعًا وعلى اختلاف أنواعها في عداد شعر الثورة والمقاومة المعبر عن كفاح شعب عظيم ضد عدو الحرية وسائر حقوق الإنسان. وتختلف النصوص التي كتبها شعراء أقل موهبة من الكبار في قيمتها الفنية، وتغلب النبرة الحماسية على بعض قصائدهم الكلاسيكية مما جعلها تتسم أحيانًا بالمباشرة والتقريرية. ولكننا نلتمس العذر لهؤلاء الشعراء بالنظر إلى سمو المضمون الذي اتخذوه مصدرًا لتعبيرهم والصدق الشعوري الذي يصدرون عنه. وليس من الإنصاف أن نعد قصائدهم هذه من شعر المناسبات، فالحرب التي نشبت بين الشعب الجزائري ومستعمريه ليست مناسبة، وإنما هي حدث عظيم غير مجرى التاريخ وأسفر عن نصرة الحق والعدل على الجور والطغيان وغلبة النور على الظلام.

ثانيًا: الثراء الثوري مضمونًا:

اشتعلت جذوة ثورة التحرير الجزائرية، وانطلقت في مسيرتها الشاقة لتحقق على أرض الواقع أسمى القيم والمبادئ الوطنية والدينية والأخلاقية والإنسانية،

ولتستأصل شجرة البغي والعدوان من جذورها بعد أن تغلغلت في أعماق التراب الطاهر فلوثته، فكان لابد مما ليس منه بد، وهو انتفاضة الشعب لإجلاء المحتل غصبًا، فما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة كما قال جمال عبد الناصر.

(1) الدفاع عن الحق والحرية والعدل:

وقد انعكست هذه القيم والمبادئ والمثل العليا على مضمون الشعر المستوحى من الثورة، فجاء ثريًا مثل الصورة التي تعكس الأصل، إذ تعددت رؤاه وأفكاره تعدد أحلام الثوار، وبرزت فيه قضية الحق في الحياة وفي الحرية بوصفها قيمة أساسية، ولدت بمولد الإنسان وسرت في روحه مسرى الدم في الشرايين. فقد ولد الكائن البشري حرًا طليقًا وعبرّ عن ذلك الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بمخاطبته عمرو ابن العاص بقوله: "كيف استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا". والحيوان الأعجم بَلّه الإنسان مفطور على غريزة الحرية، وفي ذلك يقول شوقي:

يسكن الوحش للوثوب من الأسر، فكيف الخلائق العقلاء؟

ومن وحي قضية الحرية التي ثار الشعب الجزائري في سبيلها: كتب الشاعر حسن فتح الباب قصيدة بعنوان: (العالم والحرية ـ أغنية إلى الجزائر) قال فيها:

يا للفرحة تحتضن الكون
أنفاسًا تتهدج
تاريخًا يتوهج
الكون جميل ما أحلى
لكنْ عشاق الحريه
ما زالوا يغشون الظلمات
مازالوا رواد صراع
لم تدفن منهم أموات
لم تعزف مرثية وداع

العالم ملك البشريه

لكن الحريه

ما زالت أمنيَّه

لقد كانت فرنسا الاستعمارية تتشدق بالحرية، وظلت ترفع الشعار الذي نادت به ثورة 1789، ولكنها لم تتورع عن غزو المغرب العربي واحتلال الجزائر سنة 1830. ولقد انخرط الآلاف من الجزائريين في الحرب العالمية الأولى دفاعًا عن فرنسا ضد الغزو النازي، ولما انتصر الحلفاء طالب أبناء الجزائر بالاستقلال الذي وعدتهم به فرنسا، فلم تستجب لمطلبهم العادل، فانتفضوا في مظاهرات سلمية سنة 1945 عمت ربوع البلاد، فكان أن لقوا جزاء سنمار، إذ ارتكب الجيش الاستعماري أفظع المذابح في مدن قسنطينة وقالمة وسطيف، وبلغ عدد الضحايا خمسة وأربعين ألف شهيد.

وفي مناقضة الفعل للقول قال الشاعر حسن كامل الصيرفي قصيدته: (شريعة الغاب):

شريعة الغاب عاد الظفر والناب ... وعاد لليغي سلطان وإرهاب
ونكست لصروح العدل ألوية ... وحطمت لرموز الحق أنصاب
واستشرت الطغمة الحمقاء يدفعها ... إلى المهالك خطاف ونهاب
صبوا الجحيم على الأحرار وانتهكوا ... قداسة الحق حين الحق محراب
وحشية نسبت للوحش ظالمة ... فالوحش يأنف مما جاء أذناب
يا ناقمين على "البستيل" سيرته ... الظلم عاد له في الأرض أعقاب
حرية الناس غابت عن شعاركمو ... يا من سقاكم كئوس الذل غلاب

وقد شاعت كلمة الحرية ومترادفاتها والكلمة التي تناقضها وهي: الظلم ومترادفاته في الأشعار المستوحاة من الثورة كما نرى في قصيدة الصيرفي وفي قصيدة (دماء ولهيب) لعبد المنعم قنديل إذ يختمها بهذه الأبيات مخاطبا الشعوب العربية عامة والشعب الجزائري خاصة:

يـــا أمـــة الأحـــرار حســـبك عـــزة ... أن الهـــوان علـــى بنـــيك محـــرم
دكـــي صـــروح الظلـــم إن حصـــونه ... في كـــل أرض حـــرة تـــتهدم
زمـــن الطغـــاة مضـــى وأقـــبل عـــالم ... يوحـــي الســـلام إلى الشـــعوب ويلـــهم

(2) الولاء للوطن والجهاد في سبيله:

والقيمة المثالية الثانية التى دافع عنها الشعب الجزائري بانتفاضاته المتواترة وثورته الكبرى هي: الولاء للوطن والوفاء لتاريخه، فهذا الشعب مثل كل الشعوب الحرة شديد الاعتزاز بأرضه؛ إذ يراها عرضه الذي ينبغي أن يصان ولو اضطر أن يسكب الدم الغالي في سبيل صد الغزاة عنه واقتلاعهم من ترابه واسترداد كرامته. فالفداء فريضة واجبة إذا دعا داعي الجهاد، والعدل دستور ارتضاه البشر منذ أقدم العصور، فإذا اختل ميزانه انتفض وثار حتى يعتدل.

وإيمانًا بهذه الرسالة الوطنية وهي: الجهاد، أطلق الشعب الجزائري على الثوار اسم: المجاهدين، وتغنى الشعراء المصريون وأشقاؤهم العرب ببطولاتهم، ورثَوْا شهداءهم تخليدًا لذكراهم، ونظرًا لأن هؤلاء الشهداء كانوا يعدون بعشرات الآلاف فقد كثرت مرثياتهم التي امتزجت فيها لوعة الحزن لفقدهم بفرحة زفافهم إلى جنان النعيم مع الصديقين مخلدين فيها أبدًا. وكان لحن البطولة والشهادة وترًا أساسيًّا في قيثارة الشعراء يعزفونه كلما انتصر الثوار في معركة، أو سقط فدائي منهم يضرِّج الأرض بدمائه الطاهرة. لقد كان شهداء الثورة الجزائرية كالأشجار التي تموت واقفة، فما خافوا من العدو أو فزعوا من جيوشه المدججة بأقوى الأسلحة، وما تهيبوا الموت دفاعًا عن وطنهم بل كانوا يلاقونه وجهًا لوجه، ومن ثم يصدق فيهم قول أبي الطيب المتنبي مخاطبًا سيف الدولة:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

لقد كان الصحابي يهتف وهو يجود بأنفاسه على أثر إصابته بطعنة قاتلة: (نجوت وربِّ الكعبة) لأنه لقي الشهادة، والفدائيون الجزائريون كانوا أحفاد هؤلاء الصحابة، فمجدهم الشعراء وخلدوهم في التاريخ.

(3) **فريضة الدفاع عن الإسلام:**

والحفاظ على العقيدة الدينية قيمة جوهرية ورثها الجزائريون أبًا عن جد وكابرًا عن كابر، وقد كان أهم مقاصدهم من الانتفاضات ثم الثورة رد العدوان على دينهم، وهو الذي تمثل في محاولات "التنصير" إذ استقدم المستعمر إلى الجزائر كثيرًا من القس للتبشير بالمسيحية، وأهملوا المساجد بل هدموا بعضها. ويتصل بالدفاع عن الدين الإسلامي والتمسك بأصول الشريعة الدفاع عن اللغة العربية التي تعد اللغة الوطنية الأصلية، كما نص على ذلك الميثاق الذي أصدرته حكومة الثورة بعد الاستقلال وكذلك الدستور.

وقد عمدت الحكومات الاستعمارية إلى فرنسة الجزائر في جميع المجالات وفي مقدمتها لسان التخاطب والكتابة، فنشرت المدارس الفرنسية وقاومت لغة البلاد، ثم صرحت لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسسها "الإمام بن باديس" بإنشاء كتاتيب يدرس بها قليل من العلوم الدينية ومبادئ اللغة العربية. أما الجامعات فكان التعليم بها مقصورًا على اللغة الفرنسية. ولم يسلم أعضاء جمعية العلماء المسلمين من تعسف واضطهاد وأذى السلطة المحتلة لإجبارهم على وقف نشاطهم والاستمرار في أداء رسالتهم، وكثيرًا ما أغلقت مدارسهم والمساجد التي بنوها بما استطاعوا جمعه من مال قليل حصّلوه من التبرعات الأهلية.

وليس أدل على تمسك الجزائريين بالإسلام دينًا وحياة من أن شعار الثورة كان: (الله أكبر)، هذا الشعار الذي كان يتردد في المعارك ويهتدي بنوره المقاتلون البواسل. فها هي جميلة ـ في مسرحية الشرقاوي ـ تصرخ في وجه سَجانها: (الله أكبر، الله أكبر، فلترفعوا أصواتكم أيضًا ليرتفع النداء: الله أكبر، الله أكبر).

(4) **تمجيد الأبطال وتخليد الشهداء:**

يقترن اعتناق الحرية كمبدأ أساسي في حياة البشر بالحث على الدفاع عنها وانتزاعها من غاصبيها مهما بلغت التضحيات. ولذلك، لم تكن تخلو قصيدة من قصائد المقاومة والثورة من تمجيد البطولة والاستشهاد. ومن ثم، حظيت القصائد وسائر الأعمال الإبداعية المستلهمة من "جميلة" بالنصيب الأوفى من

الشعر لأنها رمز للكفاح والبطولة والتضحية ومجد للثورة ومنارة للجهاد يقتدي بها إخوانها وأخواتها من أبناء الشعوب عامة والشعب العربي خاصة. وتصور مسرحية عبد الرحمن الشرقاوي قيمة الحرية، هذه العروس التي مهرها الفداء في الحوار الآتي بين جاسر وجميلة:

جاسر : لكنني لا أنحني أبدًا.. فتلك هي النهايه

هذا هو العار الذى يصم القلوب إلى الأبد

جميلة : فإذا سقطت أنا، ألا تأتي إلى قبري لتبكيني؟

جاسر : كُفّي

جميلة : أتراك ترفض وقتها أن تنحني؟

جاسر : وإذا سقطت أنا شهيدًا ذات يوم دون قبر

جميلة : أنت رمز ليس يقهر

وفي مشهد آخر تحض جميلة المجاهدين الرابضين في القمم والسفوح على الاستمرار في القتال حتى يظفر الشعب بحريته، وليكن الفداء دستورهم الذي عاهدوا الله والشعب عليه:

يا أيها الفرسان من كل الجبال، تقدموا وتقدموا

يا أيها الشجعان في جوف الليالي السود

لا تستسلموا، وتقدموا وتقدموا

(5) الدفاع عن عروبة الجزائر:

عبّر الشعراء في كثير من القصائد عن عروبة الجزائر منذ الفتح الإسلامي داحضين مقولة المستعمرين: إن الجزائر فرنسية وأهلها منحدرون من "الغال" مثل الفرنسيين، زاعمين أن أرضها امتداد لأرض فرنسا عبر البحر الأبيض المتوسط، فقال عمر الجارم في قصيدته: (الجزائر الظافرة):

نفسي فدا الشهداء من أنثى ومولود وكابر
طردوا الدخيل وكلهم لدخول فردوس مبادر
صانوا عروبتهم فكبّرت المآذن والمنابر

ونظم عبد الباري أبو العينين قصيدة بعنوان: (الجزائر) قال فيها:

عيشي جزائر للعروبة منهلاً عذبًا لكل غضنفر مغوار

وافتتح محمد التهامي قصيدته: (بطل الجزائر) بهذا البيت مخاطبًا ابن الجزائر الثائر:

سر العروبة فيك أن
تلقى العذاب وأنت صابر

وعبر محمد هارون الحلو عن الرابطة القومية التي تجمع بين الجزائريين وأشقائهم العرب بقوله في قصيدة: (أبطال النضال):

إنا بني العرب الأشاوس نلتقي منكم بكل فتى أبي أشجع

وقال أحمد مخيمر في انتماء الجزائر إلى العروبة داعيًا إلى وحدة الشعوب العربية:

إن العروبة بالدم
وبكل أروع مقدم
سنصون وحدة شعبنا

واستلهم عبد الرحمن صدقي عروبة الثورة الجزائرية في قصيدة بعنوان: (صوت العروبة) قال فيها:

صوت يزُف البشائر إلى أبيّاة الجزائر
في الغرب أذكوه نارا على الدخيل المكابر
عرب ومن في التلاقي كالعرب أُسْدًا كواسر

وفي مهرجان أقيم بمصر في 31 أكتوبر 1974 أنشد الشاعر "شوقي هيكل" قصيدة بعنوان: (تحية إلى الشعب العربي بالجزائر في العيد العشرين للثورة) عبر فيها عن عروبة الجزائر وعقيدتها الإسلامية في قوله:

هـــذي شـــواهد عـــزة عـــربية تـــبي العقـــول وتبهـــر الأحـــداقا
قـــد وحـــد الإســـلام شمـــل قلوبـــنا ودم العـــروبة في العـــروق تلاقـــى
فالـــيوم عـــيدك يـــا عـــروبة كبِّـــري لله نصـــرًا وارفعـــي الأعـــناقا

وهكذا، كان انتصار ثورة التحرير الجزائرية نصرًا للعروبة والإسلام، وإحياءً للماضي الحافل بأحداث المعارك المظفرة التي خاضها العرب دفاعا عن قوميتهم وهويتهم وإرثهم الحضاري.

(5) الإيمان بالوحدة مغربًا ومشرقًا:

ارتبط أبناء الشمال الإفريقي في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى منذ القدم بآصرة الأخوَّة عِرقًا ودينًا ولغة وثقافة، كما تضامنوا سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، فجمع بينهم الماضي والحاضر في السراء والضراء كما جمع بينهم المستقبل المنشود، ولم تكن ثمة حدود فاصلة بين بلدانهم. وقد نظر الاستعمار الأسباني ثم الفرنسي إلى الشمال الإفريقي باعتباره رقعة جغرافية واحدة، فكان غزوه للأقطار الثلاثة التي لم تستكن للغزو والاحتلال بل قاومتهما. وكانت ثورة التحرير الجزائرية هي ذروة هذا الكفاح، وبلغ من قوتها أن الاستعمار الفرنسي جلا عن المغرب وتونس كي يتفرغ لمعركته الكبرى ضد الثوار الجزائريين، ولا سيما أن الجزائر هي الأكبر مساحة والأكثر ثروات، فمارس سياسة إدماجها وفرنستها مدعيًا ـ كما سبق البيان ـ أنها امتداد لفرنسا، فجلب الآلاف من مواطنيه للإقامة بها، وشرد أهلها في الصحارى، وقتل الكثيرين منهم، وبلغ من طغيانه أنه أجرى تجربة ذرية في جنوب الجزائر معتبرًا أصقاعها جميعًا ملكًا له.

وأدرك أبناء المغرب العربي الكبير أن خلاصهم من المحتل الغاصب لن يتم إلا عن طريق وحدتهم، فنادوا بها وتداعى إليها قادتهم وعلماؤهم ومثقفوهم. وكان مفدي زكرياء شاعر الثورة من أكبر دعاة هذه الوحدة كما نتبين من قصائده ومن رائعته الملحمية: (إلياذة الجزائر). وقد بدأ مسيرته النضالية بالانضمام إلى (حزب نجم إفريقيا الشمالية) ولهذا الاسم دلالته على الإيمان بمبدأ الوحدة المغاربية. كما تضمن هذا

المبدأ والدعوة إلى تحقيقه شعر محمد العيد آل خليفة وسائر شعراء الجزائر، سواء منهم من قضى نحبه قبل الثورة أم كان على قيد الحياة وقت اندلاعها.

ولا غرو أن يساير كثير من شعراء مصر أشقاءهم الجزائريين في الإشادة بهذه الوحدة انطلاقًا من إيمانهم بالقومية العربية، فضمنوها قصائدهم، وكان في طليعتهم: محمود حسن إسماعيل، فله قصيدة دالة على ذلك بعنوانها ومحتواها وهي: (المغرب الثائر ـ من كفاح الشعب في المغرب العربي المناضل ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم عام 1951) يقول فيها:

عربي ساجل الشمس الخطى ... وتوارت وهو يجتاب الرِّعانا
يلطم الأرض فما تدري له ... من بعيد الشأو أفقًا أو مكانا
تركت خيمته فوق الثرى ... سيرة يروي بها النجم علانا
همة الأبطال والبأس الذي ... كان للأبطال خمرًا ودنانا
ضاق أفق الشرق عن أعلامه ... فطوى الغرب ولم يغمد سنانا
لم يزل "طارق" في أجناده ... يخطب الدهر ويسقيه البنانا

(6) الإيمان بحتمية النصر:

أدرك قادة الثورة أن الكفاح المسلح هو طريقهم إلى انتزاع حريتهم، وبثوا الوعي بحتمية النصر في القاعدة الشعبية التي تقف خلفهم ما داموا على عهد الجهاد قائمين، مدركين أن دولة الظلم ساعة، ودولة الحرية والعدل إلى قيام الساعة، فلابد أن ينجلي الظلام ويحمل المستعمر عصاه ويرحل مذمومًا مدحورًا. وقد تجاوب الشعراء مع الثوار في هذا الإيمان، وتغنوا بشجاعة المقاومين وقدرتهم على تحقيق النصر، وصدحت أصواتهم بنداءات الفجر القريب وهو يزيح أستار الظلمة ويطرق باب الغد المضيء. وقد عبر الشاعر عبد الرحمن الشرقاوي في مسرحيته عن هذا التفاؤل بقوله على لسان جميلة في حوارها مع جاسر:

ليدو صوت النصر في كل البقاع

ياسيدي زحف النهار

ارفعوا أصواتكم أيضا من الجبل البعيد

لتردد الوديان هذا الصوت: صوت الانتصار

لقد كانت الخمسينيات من القرن الماضي هي مرحلة التحول التاريخي من الظلام إلى النور، إذ زخرت بالانتفاضات الشعبية وثورات التحرير التي لم يجد قادتها بدًّا من استعمال السلاح لمقاومة الغزاة الغاصبين وطردهم من بلادهم، مؤمنين بأن النصر هو نهاية المطاف. ويتمثل هذا الإيمان في قصيدة الدكتور حسن فتح الباب: (لن تصلب الشمس في الجزائر)؛ إذ يقول فيها مخاطبًا ثورة نوفمبر:

يا طلعة الشمس حرة على القمم

تعانق الشاطئ الغربي موجة ودم

تضيء في جبهة الوليد تسحق العدم

وتنضح النهر في تياره العرم

يفيض بالنار والرجال

يذوب في لجة النضال

ويصهر القيد عن جداره الأشم

ويختمها بأنشودة النصر الآتي وإن طال الزمن، فلن يستطيع الجناة المجرمون أن يصابوا الشمس أو يدكوا قلعة النضال مهما تمادوا في ذبح النساء والأطفال:

جدار إفريقيا الغربي لن يميد

وموكب الجيل بعد الجيل في صعود

فدًا له ثائر شهيد

وحرة تحطم القيود

إفريقيا لم تعد جزيرة القرصان والعبيد

وشعب أوراس بالفداء يشتري الخلود

وفي ختام قصيدة: (الفارس محبوب جميلة) للشاعر فتحي سعيد بشرى بالنصر، إذ يقول:

جيل صاعد
يتسلق جدران التاريخ إلى القمه
يصنع أمه
والريح تزمجر في الغابه
والمارد يشرع أنيابه
واللحن برغم دويّ الريح جميل
أخضر كالغصن يعانق لون الفجر
محبوب جميلة وطن حر
والموعد أن يلتقيا عند الفجر

كما يستبشر بالنصر المؤزر القريب الشاعر عبد المنعم عواد يوسف في قصيدته ذات المسحة القصصية: (لقاء مع النصر) إذ يقول:

في غد يصعد صوت الحب من بين البشائر
عندما تنبت تلك الأرض وردًا وأزاهر
عندما نجتث منها الشوك نودي بالدياجر
عندما تشرق شمس الحق في أفق الجزائر
أقبل النصر وها قد جاء كل العائدين
تنضح الأعين وجدًا واشتياقًا وحنين
أمهات طالما اشتقن إلى عود البنين
والعذارى ترقب الأحباب في شوق دفين

وتتمثل هذه الرؤيا المتفائلة أيضًا في قصيدة طويلة نشرها عبد الرحمن الخميسي بعنوان: (أبو القاسم الجزائري) وقد روى فيها قصة مواطن بسيط من تلمسان خرج إلى السوق حيث اشترى لعبة لطفله وثوبًا لزوجته فأرداه المجرمون قتيلا. ولكن روحه لم تمت لأن الغد الآتي الجميل على الأبواب التي سيفتحها الثوار ويجنون ثمرة النصر من شجرة النضال المستميت، وسيرجع الشهداء ليشاركوا في عرس الحرية والاستقلال.

وذلك هو المعنى الذي صوره الشاعر وهو يخاطب أرملة أبي القاسم: ضحية المستعمرين البغاة:

اخلعي ياظبية العينين أثواب الحداد

لم يمت زوجك، لكن عاش في روح الجهاد

إنه يقتحم الموت على سجن البلاد

إنه ينسف في الليل حصون الغاصبين

إنه يمشي ويمشي في صفوف الثائرين

ولقد كان عام 1958 أكثر الأعوام خصبًا في إلهام الشعر، ويمكن أن نعده أيضًا عام "جميلة بو حريد" إذ نشرت فيه معظم القصائد المستوحاة منها، وتنبأ المبدعون حينذاك بانتصار الثورة، ومنهم عبد الباري أبو العينين في قصيدته: (الجزائر) إذ بشَّر بهذا الانتصار:

حـــي الجزائـــر معقـــل الـــثوار حصـــن العـــروبة مـــوطن الأحـــرار

مـــا إن ذكـــرتك يـــا جزائـــر مـــرَّة غنـــى بلحـــنك مـــوكب الـــثوار

ســنعيش باســمك في انتصــار ســاحق ويظـــل قطـــرك أعظـــم الأقطـــار

هكذا، آمن الشعراء بالنصر الحتمي للجزائر، وحينما أشرقت شمسه في يوم 5 يوليو 1962 تباروا في التعبير عن شعور الملايين بالفرحة والأمل في مستقبل مضيء للشعب الجزائري في ظل شجرة الاستقلال.

ثالثًا: الخصائص الفنية:

(1) البنية التصويرية:

لم يقف شعراء مصر ـ في تجاوبهم مع الثورة ـ إبداعهم على تصوير الأحداث تصويرًا فنيًّا، بل صوروا أيضًا بعض الشخصيات التي كتبت سطورًا من نور على صفحات هذه الأحداث، ومنهم راحلون وآخرون، لا يزالون على قيد الحياة. فمن الشهداء "البطل بوصوف" وقد استوحاه الشاعر حسن فتح الباب قصيدة بعنوان: (شهيد من الجزائر ـ في مصرع البطل الجزائري "عبد الحميد بوصوف" الذي أحرقه

المستعمرون حيًّا حين انضم إلى صفوف الشعب) وتختتم هذه القصيدة بالأبيات الآتية:

والشمس في صباحها تعود
لتنضج الثمار في الوهاد
والطفل يهجر المهاد
وحفنة من الرماد المحترق
في كفه يرمي بها الجناه
وكلما تخضب الأفق
عادت إلى رفاتك الحياه
"يوصوف" يا مخلدًا إلى الأبد

فمثلما تتحول عناصر الطبيعة من ضوء وهواء وتراب إلى بساتين ناضرة بالأزهار والثمار، يتحول رماد الثوار الشهداء إلى دماء في شرايين أطفال الجزائر وابتسامات على وجوههم، لأن الشهداء مثل بوصوف لا يموتون، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران ـ 169].

وكثير من الشعراء كتبوا مرثيات للشهداء الذين لم تعرف أسماؤهم لكثرة عددهم، فقد ضحى مليون ونصف مليون من أبناء الجزائر بحياتهم، وما زلت أذكر مشهدًا رأيته عبر التلفزة حين كنت مقيمًا بمدينة وهران بعد النصر والاستقلال، وقد تمثل في عثور العمال الذين يحفرون الأرض لبناء قواعد مبنى لمصنع أو معمل أو مدرسة أو مستشفى، عثورهم على أشلاء شهداء ارتطمت بها المعاول وهي متكومة في مقبرة جماعية، وقد تكرر هذا المشهد في عدة بلدان مما دل على وحشية المستعمر.

تصوير "جميلة": الرمز الساطع:

أما المناضلون الأحياء الذين أشاد الشعراء ببطولاتهم، فأشهرهم "جميلة بو حريد" التي تمثل النموذج الساطع في الجهاد وتجسد المثل الأعلى في الوطنية. لذلك حظيت القصائد التي استلهمتها بالنصيب الأوفى من الشعر، ومنها قصيدة: (زهرة من عذاب) للشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل، وفيها يقول:

كلمـــا شـــدت السلاســـل في ... إصـــرارها الحـــر عقـــدة مســـتحيله
أورقـــت للحديـــد نـــارًا وخلّـــت ... جمـــرها بالغـــناء يســـقي غلـــيله
كلمـــا أوغلـــت وعـــود المـــنايا ... في ضـــحاها لكـــي تـــذيب ســـهوله
نســـخت عطـــرها فـــناءً وبعـــثًا ... وحـــياة جديـــدة للـــبطوله
كلمـــا أنفـــذ المعـــذب ســـوطًا ... في شـــذاها وأطـــبق الـــرعب غـــوله
وقفـــت كالـــزمان كالغـــيب ... كالإيمـــان تخـــزي عذابـــه وغلـــيله

وتختتم القصيدة بمثل ما تختتم به السيمفونية من نغمة مدوية (كريشندو) عبر عنها الشاعر بأسلوب تتكرر فيه أداة الاستفهام "أم" للدلالة على تعدد سمات البطولة وصورها:

زهرة؟ أم تميمة لكفاح الرق؟ أم قصة الفداء الطويله؟
أم نشيد الأيام؟ أم ثورة الإلهام؟ أم غضبة الحياة الذليله؟
أم دعاء الأحرار؟ أم قسم الثوار؟ أم توبة الليالي.. جميله؟

وحين ثار الرأي العام العالمي حتى في قلب فرنسا بعد الحكم على "جميلة" بالإعدام وطالب بالإفراج عنها، جأر الشعراء بأصواتهم التي تصب اللعنات على السفاحين، فكتب الشاعر الرائد عبد الرحمن الشرقاوي قصيدته الطويلة، (فلتعيشي يا جميلة)، التي ينقم فيها على هؤلاء الذين يتغنون بالحرية والعدالة والمساواة رافعين الشعار الذي نادى به فولتير وجان جاك روسو ورفعته الثورة الفرنسية، ويبشر المناضلة بتحريرها والثورة بانتصارها:

اذكري في سجنك المقبض والغيلان حولك
تشتهي لحمك في النيران أو تفتل حبلك
اذكري والغول بالسكين يخطو نحو سجنك
هذه القصة من عهد الطفوله
وغدا في اللحظات المرعبه

يقبل الفرسان من كل مكان

بسيوف عربيات السنان

تصرع الغيلان بغته

وتعودين على صهوة مهر لا يجارى

وتعيشين الحياة الطيبه

في "التبات والنبات"

ليس هذا القول حلمًا بالخلاص

إنه الواقع تمليه الشعوب

وتشيع في هذه القصيدة مصطلحات مذهب الواقعية الاشتراكية الذي ذاع في الخمسينات مما يضفي عليها سمة نثرية، ولكن حسب الشاعر قوة تعبيره عن مأساة "جميلة" وبطولتها، ونجاحه في توظيف الأساطير لتصوير الواقع والتحريض على محاربة الاستعمار وبث الأمل في نفوس المقاومين. ولم يتخلف الشاعر صلاح عبد الصبور عن ركب رفاقه في مصر وسائر بلدان الوطن العربي، إذ كتب من وحي "جميلة" قصيدة بعنوان: (جميلة علم وهران) نقتطف منها هذه السطور:

عندما يشحب خدان نديان

ولا يستفهم ثغر

ويكون الموت أحلى وهو مر

ويميل العود للأرض ويهتز ويأبى

ثم يهوي في ذرى الزيتون والكرم صريعا

فستلقاه التلال الخضر رايه

علما يجمع حوليه الجموعا

وستمضي خلفه حتى النهايه

نصرنا نصر الشعوب العربيه

وعلى الرغم من نثرية بعض العبارات، فإن الشاعر قد أجاد في توظيف مفردات

الطبيعة، لتصوير المفارقة بين الموت والحياة، وجاءت القصيدة مثل لوحة تشكيلية، وانتهت مثل قصيدة الشرقاوي بهتاف النصر.

وقد تدفق وحي جميلة بو حريد في قيثارة الشعراء سواء عندما كانت رمزًا للكفاح والبطولة في أثناء الثورة، وثار الرأي العام العالمي مطالبًا بالإفراج عنها بعد أن اعتقلتها السلطة الاستعمارية وأودعتها عالم السدود والقيود، أو عندما رضخت هذه السلطة المستبدة للنداءات التي أقضت مضجعها وكشفت عن وجهها القبيح. ونظم بعض الشعراء قصائدهم في صيغة خطاب من "جميلة" إلى أحرار العالم، ومنها قصيدة عبد القادر حميدة: (رسالة من جميلة) التي يستهلها بالأبيات الآتية:

باسم كل الشرفاء
والأمانيِّ الوضاء
يا رئيس الدولة العجفاء في أرض فرنسا
دونما أدنى تحيه
من فتاة عربيه
تشرب الليل كئوسًا من عذاب
وسياطًا من وحوش وكلاب
وحروقًا فوق ظهري
وعلى وجهي وصدري

وتنتهي القصيدة بصيحة الفدائية في وجوه الجلادين:

اقتلوني ؛ فأنا فدية شعبي
لك يا شعبيَ روحي، لك حبي
من فتاة أُرسلت للموت غيله
من جميله

وينظم الشاعر محمود الخفيف قصيدة عصماء طويلة من الشعر العمودي في صيغة خطاب إلى أعداء الحرية الذين سجنوا "جميلة" دون أن يردعهم ضمير وهم يتفننون في وسائل تعذيبها كي تدلهم على من وراءها من المجاهدين، فترفض إفشاء سرها

رغم سوء العذاب، وتتحمل الأذى صابرة، بل تسخر من جلاديها وتتحدى جبروتهم، وتبدأ القصيدة بالأبيات الآتية:

اقتلوها، هل بكت إلا حماها ... أو شكت إلا إلى الله أساها

اقتلوها حرة صابرة ... يشفق الموت إذا الموت رآها

اسألوها واسألوا جلادها ... كم سقته من عذاب وسقاها

عذبت جلادها بسمتُها ... ويقين لم يضعضعه ضناها

ورآها سخرت من ناره ... وكوته نارها لما كواها

إن قوة الروح النضالية هي التي فجرت طاقة الصبر والمقاومة في حنايا هذه الفتاة الغضة العود، فبدت في كبريائها كأشجع الرجال وأعظم الفرسان لا تهين ولا تستكين؛ لأنها وهبت حياتها لثورة بلادها، وجعلت روحها ـ إذا لقيت حتفها بأيدي الجبناء ـ قربانًا على مذبح الحرية، وودّت لو نالت الاستشهاد.

ومن الثوار الذين استوحاهم بعض الشعراء في قصائهم عن الثورة المجاهد بن بيللاّ أول رئيس للجمهورية الجزائرية، ومن هؤلاء الشعراء: كمال نشأت إذ نشر قصيدة بعنوان: (بن بيللا)، كما تضمنت قصيدة محمود الخفيف اسم هذا المناضل.

(2) **استدعاء الشخصيات التاريخية:**

من أهم الوسائل الفنية التي يلجأ إليها الشعراء لإثراء مضامين قصائدهم وإضاءة معانيها، استدعاء الشخصيات التاريخية التي كان لها دور بارز في حياة شعوبها وامتداد أثرها أحيانًا إلى مختلف بقاع العالم؛ فهذا الاستدعاء يضفي حرارة وإثارة على النص الشعري إذ يختار المبدع من هذه الشخصيات ما أصبح رمزًا لقيمة وطنية أو قومية أو إنسانية، وما للحدث أو النموذج البشري الذي يعبر عنه الشاعر من صلة حميمة بهذه الشخصية. والشاعر يحلم، ومن ثم يوظف الرمز الإنساني ليدفئ به حلمه.

ونظرًا لوجه الشبه بين "جميلة" التي عذبها المستعمر لانضمامها إلى الثورة، وجان دارك الفتاة الفرنسية التي واجهت ـ متحدية ـ المحتل الإنجليزي؛ فألقى القبض عليها وأحرقها حية، فقد سمى بعض الشعراء المجاهدة الجزائرية باسم الثائرة الفرنسية ضحية الدفاع عن حق بلادها في التحرر من العصبة الباغية.. ومن هؤلاء الشعراء محمد الجيار في قصيدته: (رسالة إلى جميلة) إذ يقول فيها:

روح "جان دارك" على عينيك عادت تبتسم
بُعثت في وجهك الشاحب روحًا ترتسم
في خطاك الأرض غنى قلبها أسمى نغم
كم تعذبت وكم مزقت في ليل الألم

ويخاطب محمود الخفيف المستعمرين الطغاة في قصيدته (جميلة بوحريد) منددًا بظلمهم، معيرهم بجريمتهم المنكرة حين قتلوا جان دارك وهي العذراء البريئة العزلاء بدم بارد:

أين "جان دارك" جحدتم ويحكم ... ما عناها ونسيتم ما دهاها
برئت منكم ومن إجرامكم ... إنكم أطغى وأقسى من عِداها

كما يعيِّرهم بهزيمتهم الشنعاء يوم غزا هتلر وجنوده بلادهم، ووقعت باريس في قبضته لقمة سائغة دون أدنى مقاومة:

ما لكم كيف غدوتم أذؤبا ... عاويات نافرات من فلاها
أنسيتم ـ ويلكم ـ جارتكم ... كيف كنتم بين كفيها شياها؟
يوم وليتم فرارًا ما لكم ... مستقر وتوقيتم لِقاها
ثم عافتكم طعامًا وازدرت ... خفضكم حين أجبتم مبتغاها
اخفضوا يا قوم هاماتكمو ... فلأنتم أوضع الناس جباها

ثم يذكرهم بالمذابح التي ارتكبوها في بلاد الشام، يوم ثارت دمشق في وجوههم فى العشرينيات من القرن العشرين مطالبة بجلاء جيوشهم عنها، وهي الثورة التي صورها أمير الشعراء شوقي في قصيدته المشهورة التي تتضمن هذا البيت المأثور:

وللحـــرية الحمـــراء بـــاب بكـــل يـــد مضـــرجة يـــدق

كما يذكرهم الشاعر محمود الخفيف بغزوهم مصر في حملة نابليون بونابرت، واقتحام جنوده الجامع الأزهر وتدنيس حرمته وقتلهم المناضل: عمر مكرم في الإسكندرية:

وهـنا في مصـر كـم كانـت لكـم فعلـة يحصـي الخطايـا مـن رواهـا
حسـبها خـيل غـزت محـرابها وسـيوف أومضـت في منـتداها
قَـتل الأعـزال مـن أشـياخها قائـد خـوفه حتـى دعاهـا

ويختم الشاعر قصيدته بقوله: إن مصيرهم في الجزائر سوف يكون مثل مصيرهم في مصر وهو الخسران المبين؛ لأن الشعب الجزائري ينتمي إلى العروبة أمة الفرسان الميامين:

أرأيـتم كـيف تصـليكم لظـى أمـة عـزلاء دنسـتم ثـراها
لا تخالـوا كـذبت أحلامكـم بطشـكم يـومًا عـن الحـق ثـناها
عـزمها أقـوى لظـى مـن نـاركم ومـن الله إلى النصـر هـداها
العـذارى في الوغـى خوَّفـنكم كـيف بالأشـبال زحفًـا في وغاهـا؟
نفـرت كـل "جميـلات" الحمـى كـل أخـت نافسـت فـيها أخاهـا
نسـيت كـل فـتاة قيسـها كـل ليلـى ودعـت فـيه هـواها

ويستدعي محمود الخفيف في قصيدته شخصية تاريخية أخرى تعد من رموز الكفاح وهي: شخصية الملك الصالح أيوب الذي حارب الصليبيين في مدينة المنصورة، ومات قبل أن تنتهي المعركة فأخفت زوجته نبأ وفاته حتى لا تثبط همة جنوده، وواصل المسلمون القتال حتى هزموا عدوهم وأسروا قائدهم لويس التاسع وأودعوه أسيرًا في بيت "ابن لقمان". كما ذكر الشاعر في قصيدته أسماء الأماكن مثل: جبل قيسون وميسلون، وبعض المعارك مثل معركة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين:

للصـــليبيين مـــن أســـلافكم غاشـيات طـال في الشـرق دجاهـا
حطمـت حطـين أصـلابًا لكـم وسـنا سـيف ابـن أيـوب محاهـا
ذكـــرتنا ميســـلون أمـــكم وحملـتم وزركـم فـيما عـراها

وبلغ من ولع الشعراء المصريين بترديد اسم "جميلة" وتشبيهها بالقديسة جان دارك أن الشاعر المأمون أبو شوشة نشر قصيدة بعنوان: (رسالة من جان دارك) استهلها بهذه الأبيات:

رسالة إليك يا فرنسا
إليك يا بلادي
وقصة طويلة.. طويله
كتبتها هناك
على تلال أراك
بثورتي وعزمة الجهاد
وخطوة الضياء في الظلال
وقصة المحاكمه
ويوم قيل: مسها خبال
لأنني هتفت: يا حريه

وجاء الختام مقرونًا باسم جان دارك الجزائرية:

وخلف سلك شائك على التلال
خلف الضحايا.. خلف كل ثائر
بأرضه الجزائر
هناك لا تزال
أنشودة الحريه
والقصة الطويلة الطويله

إرادة الحياة والحريه
واسمها جميله

(3) **صيغة الخطاب:**

تعد صيغة الخطاب من أهم الخصائص الأسلوبية التي تشيع في القصائد المستوحاة من الثورة الجزائرية. فهناك نصوص خاطب فيها الشعراء الجزائر وطنا وشعبا عريقا، مثل قصيدة عبد المنعم قنديل: (دماء ولهيب) تمجد بسالة المجاهدين وتضحياتهم؛ إذ يقول:

أرض الجزائـــر، رب يـــوم لافـــح ... سـالت لـديك علـى ضحاه جهـنم
وأتـــى المـــنون إلـــيك يبســـط كفّـــه ... ثـــم انثـــنى وأكفـــه تـــتألم
قـــد راعـــه أن الأجـــنة بعثـــرت ... وتكـــاد مـــن آلامهـــا تـــتكلم
لم تحفلـي والمـوت حـولك جـاثم ... وخطـى اللهـيب علـى ثـراك تحـوم

وفي قصيدة بعنوان: (موعد مع النصر) يخاطب الشاعر أحمد حسين عطا الله الجزائر متفائلاً بانتصارها، بعد أن زلزل الفدائيون أركان الاستعمار بشجاعتهم الأسطورية وما أحرزوه من أسلحة، واستيقظ ضمير العالم على دقات المأساة والبطولة، فأدان الأحرار في كل الشعوب همجية الوحش الاستعماري، وتصدرت قضية الجزائر المنابر الدولية، وغدت قضية العصر:

أبشري أبشري.. فقد ضمك الفجر وألقى على يديك البشائر
وتراءى التاريخ في وجهك الحر مضيئا كأنه وجه ثائر
البطولات مشرقات على هامك مثل الشخوص مثل المنائر
والأزاهير أينعت في روابيك العذارى وعانقتك الغدائر

وتتغنى القصيدة بمجد الضحايا وبعثهم حين لاحت بشائر النصر والاستقلال، وردد الشعب أناشيد الفداء، وعمت الأصداء الآفاق. وفي نغم فياض يستطرد الشاعر في مناجاته للشعب المناضل:

إيه يا أمة الجزائر مرحى... مرحبًا بالصباح شعب الجزائر
يوم زف البشير ميلادك الغُرّ تغنى بعيده ألف طائر
وتغنى الوجود حتى كأن الأفق أضحى مخضوضر اللحن ساحر
وتغنى الأبطال حتى الضحايا يتغنون من وراء الستائر
بالنشيد الجديد، بالثورة الحمراء، بالبعث، بالضحى، بالحناجر

ويستعمل الشاعر صالح جودت أيضًا أسلوب النداء في قصيدته: (فداء)، فيبدأ أبياتها الثلاثة الأولى باسم الجزائر بوصفها قلعة من قلاع الوطن العربي الكبير، ويصور سحر الطبيعة فيها انطلاقًا من نزعته الرومانسية، كما يشيد بشعبها البطل:

جزائري يا أعز ركن ... من أمتي الحرة الأبيه
جزائري يا صبا بلادي ... وعطر أنفاسها الشذيه
جزائري لم يزل حمانا ... يحمل من ثأره بقيه
يمشي إلى الموت لا يبالي ... ما دام في أرضه قضيه
إن عاش في ترابها عزيزًا ... أو مات في حبها ضحيه

ومن الشعراء الذين كان خطابهم موجهًا إلى الثورة، فجاء تحريضيًا، وتحولت كلماته إلى طلقات رصاص أو حجارة من سجيل، الشاعر: كيلاني حسن سند في قصيدة: (ثورة الجزائر) ذات المطلع المدوي مثل نشيد الجهاد:

انفجري يا قوى الجزائر
انفجري براكين ثائر
انفجري كألف ينبوع لظى
تحيط بالسفاح بالجائر
انفجري صواعقًا زلزلت
وجه الثرى باللهب الهادر

ويتحول النص من صيغة الأمر إلى صيغة النهي، وكلتاهما من دوال التحريض على مجابهة العدو لشل يده الآثمة وتحرير الأسرى الذين كبلهم بقيوده:

لا تتركي بنيك مغلولةً
أعناقهم في قبضة الآسر
لا تتركي أرضك تمتصها
أنامل المستعمر الغادر

ويستهل أحمد مخيمر قصيدته: (ثورة الشعب العربي) بأبيات يخاطب فيها الثورة العربية التي اندلعت نيرانها في الجزائر:

يا ثورة الشعب العظيم الخالدِ
بدأ المسير على الطريق الصاعدِ
ضمي الصفوف إلى الصفوف وجاهدي
وتقدمي لا تحجمي
إن العروبة بالدمِ
وبكل أروع مقدمِ
ستصون وحدة شعبنا
في أرضه، في الرافدين وفي ربى
وهران أو في هضبها

وعلى هذا المنوال - وهو صيغة الخطاب - ينسج محمد التهامي أبياتا من قصيدته: (بطل الجزائر) قاصدًا به كل ثائر في الأوراس سمع نداء شعبه يدعوه إلى الدفاع عن الأرض والعرض، فانتفض حاملاً ما استطاع إعداده من سلاح، ليذود عن مقدساته ويطرد من دنس ترابه ولوث أنهاره. هكذا يخاطب الشاعر الفتى الجزائري المجاهد:

سر العروبة فيك أن ... تلقى العذاب وأنت صابر
لو يعرفون لما مضوا ... في الحرب يا بطل الجزائر
فالدار دارك أنت ... ليست دار أفاق مغامر
كيف استطعت وأنت أعزل ... أن ترد رصاص غادر

وقد يكون الخطاب موجهًا إلى شهيد معروف مثل: (بو صوف) الذي رثاه الشاعر حسن فتح الباب في قصيدته: (شهيد من الجزائر) إذ تضمنت أبياتًا يخاطبه بها قائلاً:

إنه من الخالدين. ومن النصوص الشعرية الفريدة التي استعملت فيها صيغة المخاطبة قصيدة للشاعر محمد أحمد رمضان بعنوان: (الجندي المجهول) إذ نظمها على لسان جندي فرنسي قتل في حرب الجزائر، فوجه خطابًا إلى تجار الأسلحة الذين أرسلوه للموت، فلما لقي حتفه في معركة مع الجزائريين نقلوا جثمانه إلى أرض بعيدة: حيث دفنوه وبنوا له نصبًا باسم الجندي المجهول زاره كبراؤهم من سفير مرتزق وقائد عسكري سفاح، يحملان الزهور وهم القتلة الذين ساقوه إلى الجحيم حيث لقي مصرعه:

ركع السفير
وضريحي المسكين كلل بالزهور
والقوم يصطنعون آيات الخشوع
والصمت من حولي رهيب

ويرجم الجندي القتيل في الجزائر بلعناته هذا السفير الذي ينحني نفاقًا على نصب أحد ضحايا دولته فرنسا المغرر بهم، بادعاء أنهم يخوضون معركة مقدسة ضد "الفلاجة" الذين يريدون الاستقلال عن الوطن الأم، فكان أن لقي هؤلاء حتفهم وهم في زهرة العمر فحرموا من مباهج الحياة:

يا أيها المأفون، انهض
لست تعرف من أكون
وكيف عشت
وكيف وافتني المنون
أنا كنت أولع بالحياة
وكنت أعشق لون أجواء السماء
وصمت هاتيك النجوم
وصوت موسيقى المطر

ويحمّل هذا الجندي الضحية الحكومة الفرنسية التي يمثلها السفير الذي يرسل إليه خطابه وزر قتله وقتل أبناء الشعب الجزائري المدافعين عن وطنهم، ثم يوجه رسالته إلى بطل الجزائر:

أما دماؤك أنت يا بطل الجزائرِ
يا فتى التاريخ
يا جندينا المجهولَ
يا رمز السلامِ
فتظل ترسم للشعوبِ
طريق تقرير المصيرِ
وتدوس تجار الحروبِ
لكي يعيش أخوك أطول من حياتي
أما أنا فأظل في قبري الكبيرِ
أسير مجد زائف حتى النشورِ

وللشاعر عبد الحفيظ صقر قصيدة عنوانها: (رسالة من الجزائر) نظمها بلسان مقاتل فرنسي إلى حبيبته يقول فيها منددًا بالحكومة الفرنسية ومدافعًا عن الشعب الجزائري:

إنـــي دفعـــت إلى القـــتا ل كمـــا أظـــن بـــلا هـــدف
إلا لتقتـــيل الضـــحايا لا لـــدين أو شـــرف
وأظـــنني لـــو كـــنت مـــثلهمو لثـــرت ولم أخـــف
مـــا ذنـــبهم لـــو قاومـــوا البغـــي المســـلح والصـــلف
الـــذنب ذنـــب كـــبارنا المتقلـــبين علـــى الـــترف

أما أكثر الرسائل التي صيغت في قالب شعري فهي التي قيلت بلسان جميلة بو حريد، ومنها: (رسالة من جان دارك) باعتبار هذه المناضلة الفرنسية قناعًا أو رمزًا للثائرة الجزائرية، وكذلك الرسائل التي وجهت إلى "جميلة".

(4) **الطابع الدرامي والملحمي:**

غلبت السمة الغنائية على القصائد العمودية، باستثناء عدد قليل منها. أما قصائد الشعر الحر فقد كان طبيعيًا أن تغلب عليها السمة الدرامية والملحمية. ومن ثم صاغ

عبد الرحمن الشرقاوي مسرحيته الشعرية (مأساة جميلة) في قالب درامي، وصاغ كامل الشناوي ومحمد الجبار قصائدهما في قالب ملحمي ذي مسحة درامية تصور الصراع بين الجيش الاستعماري والشعب الجزائري الذي تقوده جبهة التحرير. وتستحق هذه الأعمال الشعرية دراسة قائمة بذاتها مما لا يتسع له الحيز المتاح لدراستنا هذه.

وأخيرًا وليس آخرًا، فإننا نود أن نؤكد حقيقة تاريخية لا خلاف عليها، وهي أن الدماء التي سكبها المجاهدون على أرض الجزائر هي التي حررتها، أما ما قدمته الشعوب الأخرى وفي مقدمتها الشعب المصري من عون عسكري وسياسي وإعلامي، ومن أعمال شعرية وفنية، تهدف إلى شحذ الإرادات وحفز الهمم؛ فقد كان عاملاً مساعدًا، أسهم في تحقيق الهدف الأسمى لثورة الأوراس وهو النصر والاستقلال، الذي ما كان ليتحقق لو لم يدفع الجزائريون ضريبته الغالية من الدم والروح...